سُورةُ النَّازِعاتِ
من آية (27) إلى آية (46)
الجزء الثالث

المعنى الإجمالي من الآية (15) إلى الآية (26): يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ تسليةً لنبيّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المبارَكِ المسَمَّى طُوًى؟ فقال له: اذهَبْ إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه تجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعِصْيانِ، فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي، وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشى سَخَطَه وعَذابَه؟

⇦فأرى موسى فِرعَونَ المعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه، فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ وعصى، ثمَّ تولَّى ساعيًا في صَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ موسى عليه السَّلامُ، فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه وخاطَبَهم، فقال لهم: أنا رَبُّكم الأعلى! فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ.

⇦إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه.

يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قُدرتِه: أأَنْتُم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ؟ بناها اللهُ تعالى، ورفَعَ بِناءَها، وجَعَل لَيْلَها مُظْلِمًا، وأضاء نهارَها بطُلوعِ شَمْسِها، وبَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، وأخرَجَ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ، والنَّباتَ، وثبَّتَ الجِبالَ، فلا تَضطرِبُ الأرضُ؛ لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم.

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: فإذا جاءت الدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي تَفوقُ شِدَّتُها كُلَّ شِدَّةٍ، يومَ يَتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأُظهِرَت النَّارُ للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا؛ فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ، وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ فإنَّ النَّارَ هي مَسكَنُه، وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عَمَّا يُسخِطُ اللهَ تعالى؛ فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ.

يقولُ تعالى: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها؟ ثمَّ يقولُ تعالى مجيبًا: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك، إلى رَبِّك وَحْدَه مُنتهى عِلمِها، إنَّما أنت مُكَلَّفٌ بإنذارِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ.

⇦ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ حالِهم عندَ قيامِ السَّاعةِ، فيقولُ: كأنَّهم يَومَ يَرَوْنَ السَّاعةَ لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا كمِقدارِ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [27 – 33]

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿27﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّها انتِقالٌ مِن الاعتبارِ بأمثالِ الكُفَّارِ مِن الأُممِ الَّذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى إبطالِ شُبهتِهم على نفْيِ البعثِ – وهي قولُهم: أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ [النازعات: 10] – وما أَعقَبوهُ مِن التَّهكُّمِ المبنيِّ على توهُّمِ إحالةِ البعثِ

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ) أي: أأنتم –أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ– أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ أقوى منكم؟ فالقادِرُ على خَلْقِ السَّماءِ وهي أعظَمُ منكم: قادِرٌ على إحيائِكم بعْدَ مَوتِكم. موسوعة التفسير

(بَنَاهَا) أي: بنى اللهُ السَّماءَ، وجعَلَها سَقْفًا للأرضِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (بَنَاهَا هذه الجُملةُ لا تتعَلَّقُ بالَّتي قَبْلَها؛ ولهذا يَنبغي للقارئِ إذا قرَأَ أن يَقِفَ على قَولِه: أَمِ السَّمَاءُ، ثمَّ يَستأنِفَ فيقولَ: بَنَاهَا، فالجُملةُ استئنافيَّةٌ لبيانِ عَظَمةِ السَّماءِ).

قال ابن عاشور: إبطالٌ لشُبهةِ المشركينَ على نفْيِ البعثِ، وجاءَ إبطالُ شُبهتِهم بقياسِ خلْقِ أجسادِهم على خلقِ السَّمواتِ والأرضِ.

قال ابن عاشور: والاستِفهامُ في أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا تقريريٌّ، والمقصودُ مِن التَّقريرِ إلجاؤُهم إلى الإقرارِ بأنَّ خلْقَ السَّماءِ أعظَمُ مِن خلْقِهم، أي: مِن خلْقِ نَوعِهم، وهو نوعُ الإنسانِ، وهم يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماءِ، فلا جَرَمَ أنَّ الَّذي قَدَرَ على خلْقِ السَّماءِ قادرٌ على خَلْقِ الإنسانِ مرَّةً ثانيةً، فيُنتِجُ ذلك أنَّ إعادةَ خلْقِ الأجسادِ بعدَ فَنائِها مَقدورةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّه قَدَرَ على ما هو أعظَمُ مِن ذلك؛ ذلك أنَّ نظَرَهم العقليَّ غيَّمتْ عليه العادةُ، فجَعَلوا ما لم يَألَفوهُ مُحالًا، ولم يَلتَفِتوا إلى إمكانِ ما هو أعظَمُ ممَّا أحالوهُ بالضَّرورةِ.

■وقيلَ: الهمزةُ للاستفهامِ التَّقريعيِّ والتَّوبيخيِّ.

قال الشَّوكاني: (أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ وبَعْثُكم أشَدُّ عِندَكم وفي تقديرِكم أمْ خَلْقُ السَّماءِ؟ والخِطابُ لكُفَّارِ مكَّةَ، والمقصودُ به التَّوبيخُ لهم والتَّبكيتُ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّماءِ الَّتي لها هذا الجِرْمُ العظيمُ، وفيها مِن عجائِبِ الصُّنعِ وبدائِعِ القُدْرةِ ما هو بَيِّنٌ للنَّاظِرينَ، كيف يَعجِزُ عن إعادةِ الأجسامِ الَّتي أماتها بعدَ أنْ خلَقَها أوَّلَ مَرَّةٍ؟!).

كما قال الله تبارك وتعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 81-82].

وقال سُبحانَه: فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ [الصافات: 11].

وقال الله عزَّ وجلَّ: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر: 57].

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ ﴿28﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن في السَّماءِ أنَّه بناها؛ بَيَّن بعدَ ذلك أنَّه كيف بناها، وشَرَح تلك الكيفيَّةَ مِن وُجوهٍ.

(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) أي: جَعَل اللهُ بناءَ السَّماءِ عاليًا عن الأرضِ، فأتقَنَ بناءَها، فهي مُستَوِيةٌ لا ارتِفاعَ أو انخفاضَ في أرجائِها، ولا فُطورَ فيها ولا شُقوقَ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (ومعنَى فَسَوَّاهَا: فجَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلقِ، مُعَدَّلةَ الشَّكلِ، لا تَفاوُتَ فيها ولا اعْوِجاجَ، ولا فُطورَ ولا شُقوقَ).

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [الرعد: 2].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [الأنبياء: 32].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ [الملك: 3].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ﴿29﴾

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) أي: وجَعَل اللهُ ليلَ السَّماءِ مُظْلِمًا. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض.

قال تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [الشمس: 4].

(وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أي: وأضاء اللهُ نهارَ السَّماءِ بطُلوعِ شَمْسِها. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

■قوله: وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا بدَأ باللَّيلِ؛ لأنَّه كان أوَّلًا، والعدمُ قبْلَ الوُجودِ.

■قولُه: وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، أي: أبْرَزَ نَهارَها، وعُبِّرَ عنه بالضُّحى؛ لأنَّه أشرَفُ أوقاتِه وأطيَبُها، وأكمَلُ أجزاءِ النَّهارِ في النُّورِ والضَّوءِ، فكان أحَقَّ بالذِّكرِ في مَقامِ الامتنانِ، وهو السِّرُّ في تأخيرِ ذِكرِه عن ذِكرِ اللَّيلِ، وفي التَّعبيرِ عن إحداثِهِ بالإخراجِ؛ فإنَّ إضافةَ النُّورِ بعدَ الظُّلمةِ أتَمُّ في الإنعامِ، وأكمَلُ في الإحسانِ.

كما قال تعالى: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) [الشمس: 3].

قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) [القصص:71].

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿30﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف كيفيَّةَ خَلْقِ السَّماءِ؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ خَلْقِ الأرضِ، فقال:

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) أي: بَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، ومَدَّها للسُّكنى فيها. موسوعة التفسير

قال تعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا، ثمَّ قال: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، وهذا يدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، مع أنَّ قولَه تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ [البقرة: 29] الآيةَ: يدُلُّ على أنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، بدليلِ لَفظةِ: (ثُمَّ) الَّتي هي للتَّرتيبِ والانفصالِ، وكذلك آيةُ (فُصِّلَتْ) تدُلُّ أيضًا على خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت: 9] ، إلى أن قال: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ الآية [فصلت: 11] .

والجواب: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما سُئل عن الجَمعِ بيْنَ آيةِ (فُصِّلَتْ) وآيةِ (النَّازعات)، فأجاب بأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعًا في يومَينِ، ثمَّ دحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجعَلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصْلُ خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قال: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، ولم يَقُلْ: (خَلَقَها)، ثمَّ فسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا الآيةَ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿31﴾

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) أي: أخرَجَ اللهُ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ وعُيونَ الماءِ، وأخرج نَباتَها. موسوعة التفسير

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ﴿32﴾

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) أي: وثبَّتَ اللهُ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ وتَميدُ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل: 15].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ [الأنبياء: 31].

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿33﴾

(مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) أي: خَلَق اللهُ تعالى ذلك لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فتتمَتَّعونَ بذلك إلى حينٍ مِنَ الزَّمانِ. موسوعة التفسير

قال تعالى: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ [البقرة: 36].

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ ﴿34﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال السعدي: لَمَّا كان الَّذي خَلَق السَّمواتِ العِظامَ وما فيها مِن الأنوارِ والأجرامِ، والأرضَ الكَثيفةَ الغَبراءَ وما فيها مِن ضَروريَّاتِ الخَلْقِ ومَنافِعِهم- لا بُدَّ أن يَبعَثَ الخَلْقَ المكَلَّفينَ، فيُجازيَهم على أعمالِهم، فمَن أحسَنَ فله الحُسنى، ومَن أساء فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَه- ذَكَر بعدَ هذا قيامَ السَّاعةِ، ثمَّ الجزاءَ قال سُبحانَه:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون:115].

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) أي: فإذا جاءت المصِيبةُ العُظْمى والدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي شِدَّتُها وهَولُها فَوقَ كُلِّ خَطْبٍ ومُصيبةٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل محب عن حبيبه].

قال الرَّسْعَني: (قَولُه تعالى: فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يريدُ: القيامةَ. وقيل: السَّاعةُ الَّتي يَتصَدَّعون فيها؛ فريقٌ إلى الجنَّةِ، وفريقٌ إلى السَّعيرِ. وقيل: النَّفخةُ الثَّانيةُ).

قال مجاهد وغيره: الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

قال تعالى: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ [القمر: 46].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿35﴾

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى) أي: يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ. موسوعة التفسير

قال السعدي: يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته. ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا سوى الأعمال.

كما قال تعالى: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [الفجر: 23].

قال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) [آل عمران:30].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ ﴿36﴾

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) أي: وأُظهِرَت النَّارُ الَّتي اشتَدَّ توَقُّدُها وأُبرِزَت للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا. موسوعة التفسير

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها)) رواه مسلم.

كما قال تعالى: وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [الفجر: 23].

وقال سُبحانَه وتعالى: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [التكاثر: 6-7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [الشعراء: 91].

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿37﴾

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى) أي: فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه. موسوعة التفسير

قال ابن رجب: الطُّغيانُ وإيثارُ الحياةِ الدُّنيا وشَهَواتِها: مِن مُوجِباتِ النَّارِ.

﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿38﴾

(وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أي: وفضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا، وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ إرضاءً لِهَواه، فعَمِل لدُنْياه، ولم يَعمَلْ لأُخْراه. موسوعة التفسير

قال السعدي: وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا على الآخرة فصار سعيه لها، ووقته مستغرقا في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

كما قال الله تبارك وتعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16-17].

قالρ:"الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ اللهِ وما والاه، وعالِمًا أو متعلمًا" صحيح الجامع

قال العثيمين: هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان وهو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة وهما متلازمتان فكل من طغى فقد آثر الحياة الدنيا.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿39﴾

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أي: فإنَّ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ: النَّارُ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: 7-8].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿40﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال السعدي: لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّاغيَ؛ أتْبَعَه المتَّقِيَ، فقال:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أي: وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، فاتَّقاه بفِعْلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه. موسوعة التفسير

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه))، وذكَرَ منهم: ((ورَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيْناه)) متفق عليه.

(وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) أي: ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عن كُلِّ ما لا يُرضي اللهَ تعالى. موسوعة التفسير

قال العثيمين: ا وصفان هما وصفا أهل الجنة وهما متلازمان من خاف مقام ربه نهى النفس عن الهوى.

كما قال تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [الكهف: 28].

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿41﴾

(فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) أي: فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [الرحمن: 46].

وقال سُبحانَه: جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [البينة: 8].

قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: 17] صحيح البخاري.

⇦هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، إذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله، وتبشر النفس بالجنة، قال الله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ} [النحل: 32]. يقولونه حين التوفي {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فيبشر بالجنة فتخرج روحه راضية متيسرة سهلة.

وقد قال أنس بن النضر -τ- لسعد بن معاذ: «يا سَعْدُ، إنِّي أجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ».

قال ابن القيم -رحمه الله-: (إن بعض الناس قد يدرك الآخرة وهو في الدينا).

قال ابن القيم: مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ: التَّصريحُ بذِكْرِ ثَوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ والمخلِصينَ والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حَسَناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ والظَّالِمينَ لأنفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسْكُتُ عنِ القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ وله مادَّتانِ، هذه طريقةُ القُرآنِ، كقولِه تعالى: فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى، وقَولِه تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: 13-14]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له؛ فإنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ.

قال ابن القيم: النَّاسُ على قِسمَينِ: قِسمٌ ظَفِرَتْ به نفْسُه فمَلَكَتْه وأهلكَتْه، وصار طَوعًا لها تحتَ أوامِرِها؛ وقِسمٌ ظَفِروا بنُفوسِهم فقَهَرُوها، فصارتْ طَوعًا لهم مُنقادةً لأوامِرِهم. قال بعضُ العارفينَ: انتهى سفرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفَرِ بأنفُسِهم، فمَن ظَفِرَ بنَفْسِه أفلَحَ وأنجَحَ، ومَن ظَفِرَتْ به نفْسُه خَسِرَ وهَلَكَ؛ قال اللهُ تعالى: فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى، فالنَّفْسُ تدعو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والرَّبُّ يدعو عَبْدَه إلى خوْفِه ونَهْيِ النَّفْسِ عنِ الهوى.

الفرق بين المأوى والمثوى المأوى: مكان مخصص للمَبيت. المثوى: مكان عام مُهيّأ للبقاء. ولا يصح أن يكون أحدهما خاصّاً بالجنة والآخر بالنار كما يَرُوج؛ فالقرآن ناوبَ بينهما: {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}، وبعدها بآية {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}. وأيضا: {وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، ثم {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿42﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ بالبُرهانِ العَقليِّ إمكانَ القيامةِ، ثمَّ أخبرَ عن وُقوعِها، ثمَّ ذَكَر أحوالَها العامَّةَ، ثمَّ ذَكَر أحوالَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ فيها؛ قال تعالى

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) أي: يَسألُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها. موسوعة التفسير

(أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أعْدَدْتَ لَهَا) صحيح البخاري

كما قال تعالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ [الأحزاب: 63].

وقال سُبحانَه: يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ [الذاريات: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ [القيامة: 5-6].

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ ﴿43﴾

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) أي: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك. موسوعة التفسير

قال السعدي: لَمَّا كان عِلمُ العِبادِ للسَّاعةِ ليس لهم فيه مَصلَحةٌ دِينيَّةٌ ولا دُنيويَّةٌ، بل المصلحةُ في خَفائِه عليهم؛ طوَى سُبحانَه عِلْمَ ذلك عن جميعِ الخَلْقِ، واستأثَرَ بعِلْمِه.

﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ ﴿44﴾

(إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) أي: إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- وَحْدَه مُنتهى عِلمِ السَّاعةِ، فلا يَعلَمُ مَوعِدَ إتيانِها سِواه. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: يفيدَ اختصاصَ ذلك به تبارك وتعالى، وهذا صريحٌ في أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ خاصٌّ باللهِ تعالى، لا يَطَّلِعُ عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ [الأعراف: 187].

وقال سُبحانَه: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [لقمان: 34].

وقال عزَّ وجلَّ: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ [فصلت: 47].

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿45﴾

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) أي: إنَّما أنت -يا محمَّدُ- مُكَلَّفٌ بتحذيرِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ؛ فهو الَّذي ينتَفِعُ بذلك، فيَعمَلُ لها، ويَستَعِدُّ مِن أجْلِها، ولم تُكَلَّفْ مَعرِفةَ وَقْتِها، أو إعلامَ النَّاسِ بمَوعِدِها. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: إنما نذارتك [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثا، ينزه الحكيم عنه.

من يكون بين عينيه دوماً أنه سيقف بين يدي الله، و"سيُكلِّمُه اللهُ يومَ القيامةِ، ليس بينه وبينه تَرجمانُ، فينظرُ أيْمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ أشأَمَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ بين يدَيه، فلا يرى إلا النَّارَ تِلقاءَ وجهِه" سيخشى الله ولا بد ويكون وقافا عند حدود الله، يفعل الأمر ويترك النهي، يتقي الله في كل أحواله وأقواله وأعماله.

قال ابن القيم: أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ آياتِه الإيمانيَّةَ القرآنيَّةَ إنَّما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخَشيةِ والإنابةِ، ومَن كان قصْدُه اتِّباعَ رِضوانِه، وأنَّها يَتذكَّرُ بها مَن يَخْشاه سُبحانَه، كما قال سُبحانَه: طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى [طه: 1 - 3]، وقال هنا: إنَّما أنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا، وأمَّا مَن لا يُؤْمِنُ بها ولا يَرجوها ولا يَخْشاها، فلا تَنفَعُه الآياتُ العِيانيَّةُ ولا القُرآنيَّةُ.

قال البقاعي: أي: فيه أهليَّةٌ أن يَخافَها خَوفًا عظيمًا، فيَعمَلَ لها؛ لعِلْمِه بإتيانِها لا محالةَ، وعِلْمِه بمَوتِه لا محالةَ، وعِلْمِه بأنَّ كُلَّ ما تحقَّقَ وُقوعُه فهو قريبٌ، وذلك لا يناسِبُ تَعيينَ وَقْتِها؛ فإنَّ مَن فيه أهليَّةُ الخَشيةِ لا يَزيدُه إبهامُها إلَّا خَشيةً، وغَيرُه لا يَزيدُه ذلك إلَّا اجترِاءً وإجرامًا.

كما قال تعالى: وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ [يونس: 101].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [يس: 11].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿46﴾

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ القيامةَ لم يَعيشوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا لا يَتجاوَزُ مِقدارَ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (مِن الزَّوالِ إلى غروبِ الشَّمسِ، والضُّحى مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى زَوالِها، يعني: كأنَّهم لم يَلْبَثوا إلَّا نِصفَ يَومٍ).

قال ابن كثير: (إذا قاموا مِن قُبورِهم إلى المحشَرِ يَستقصِرونَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا، حتَّى كأنَّها عِندَهم كانت عَشيَّةً مِن يَومٍ، أو ضُحًى مِن يَومٍ).

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ [يونس: 45].

وقال سُبحانَه وتعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ [الأحقاف: 35].

وقال الله عزَّ وجلَّ: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: 112 - 114].

قال علي بن ابي طالب:

النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السعادة فيها ترك ما فيها

لا دارٌ للمرءِ بعد الموت يسكُنها ... إلا التي كانَ قبل الموتِ بانيها

فإن بناها بخير طاب مسكنُها ... وإن بناها بشر خـاب بانيـها

أموالنا لذوي الميراث نجمعُها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيـها

أين الملوك التي كانت مسلطنتا حتى سقاها بكأس الموت ساقيـها
فكم مدائنٍ في الآفاق قد بنيت أمست خرابا وأفنى الموتُ أهليـها
لا تركِنَنَّ إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شـك يُفنينا ويُفنيـها

الفوائد المستفادة من السورة؟

أولاً: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته، فلله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله وحده.

ثانياً: إثبات الملائكة، وأعمالهم. والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان.

ثالثاً: أن إخفاء المقسم عليه يكون للتعظيم، أو للشهرة، فالله تعالى قد أخفى المقسم عليه، وهذا يزيد الأمر جلالةً ومهابةً. المقسم عليه محذوف وهو «لتبعثن» لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة

رابعاً: إثبات النفختين.

خامساً: عظم شأن الساعة؛ ولهذا كان من رحمة الله عز وجل أن الساعة، لا تقوم على مؤمن، لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

سادساً: بيان مظاهر الخوف؛ الظاهرة، والباطنة؛ الباطنة في القلوب، والظاهرة في الأعين.

سابعاً: صدمة الكفار يوم القيامة، وشدة ندمهم. التفسير العقدي

انتهى شرح السورة بفضل الله ومنته

الحَمدُ للَّهِ الَّذِي بِنعمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَات

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ